زعيم خنشلاوي
الفتوة الروحية: نماذج تاريخية

ينطوي مفهوم الولاية في الإسلام على مضمون الفتوة الروحية. و تشكل الرحمانية التي أسسها المرابط الشريف سيدي محمد بن عبد الرحمن القشطولي الزواوي الأزهري ١٧١٥/١٧٩٣ و التي هي بمثابة الطريقة الوطنية للجزائر محرك المقاومة في وجه الاحتلال الأجنبي عبر وجوهها البطولية على غرار الفرسان الأشاوس: الشيخ أحداد، لالة فاطمة أنسومر و الشيخ المقراني الذين كانوا جميعا ينتمون لهذه الطريقة الصوفية التي كان ينعتها المستعمر بـ"كنيسة الجزائر" كناية عن تهديدها له و شعبيتها. ببلوغهم أعلى المقامات العرفانية و استبطانهم للنبوة يصير هؤلاء الصلاح المحاربين فرسانا روحانيين قادرين على التفرقة بين المقاومة الشرعية و الحروب الظالمة. إن فكرة المسار التلقيني الساعي إلى مصالحة الأرض مع السماء ينبع في إطار الإسلام الكشفي الموسوم بالتصوف.

من خلال تثمين الخيل و السلاح و تخصيص نخبة روحية منقطعة لممارسة الفنون الحربية، ظهرت في الجزائر سلاسل مرابطية ذات قيم و طقوس و ميثاق شرف قائم على الأخلاق العالية كالكرم، النجدة، الشهامة، الطيبة، العفاف، الإغاثة، الاعتزاز، الحياء، الحرية، الكرامة، الإيثار، التضامن و الإحسان. إن هذا الاستعداد العسكري الذي عرفت خصاله السامية دويا عالميا بفضل سلوك الفتوة المتألق الذي قام به الأمير عبد القادر في دمشق و الذي أنقذ بمقتضاه العديد من غير المسلمين يرتكز على شرعية المقاومة بل و قداستها لدى بعض العباد الاستثنائيين المعروفين بأولياء الله، هؤلاء الصديقين المناضلين الذين هم عيون الله في الأرض و الجنود القائمين على رفع الاضطهاد و إعادة الانسجام.

ترتبط هذه المسألة بفكرة الإنسان النوراني و بطبيعته الملكوتية بحكم التجلي الإلهي الذي يغشاه و الذي يتعين عليه إعادة تفعيله عبر تجربة كشفية قائمة على انتفاضة روحية تولج من قام بمكابدتها في سلسلة فرسان الفتوة الغير مرئية. هؤلاء الذين يقع عليهم واجب خدمة المجتمع، المرابطة على الحدود، حماية اليتيم و العطف على الأرملة و الذود عن الوطن و الإيمان. تنفرد هذه القوة الداعية إلى الوحدة إلى النظام و إلى العدالة بخاصية السعي الدءوب لتحقيق خلاصة ثلاثية الأبعاد قائمة على ركائز المحبة، المعرفة و الاستحكام.

يتعلق الأمر برياضة روحية قائمة على القبول بمبدأ فدية الدم لأجل تخليص النفس من طبيعتها الأمارة بالسوء و المتجلية تارة في صورة الكافر أو تارة في صورة المحتل و لأجل عتق النسمة الإلهية المكنونة في أعماق الإنسان بالمثول الجسور أمام مذبح التضحية. الفتوة إذن تؤمن بمبدأ التسليم في الحياة و تقديس الشهادة باعتبار أن فارس الفتوة ليس له أعداء خارج خواطره الأنانية. إنه يسعى إلى الانتصار على الذات و مجاهدة النفس إلى أن يقضي على الحية التي تسعى بداخله و يلج في نهاية المطاف إلى مشاهدة جمال كعبة القلب. تقوم هذه الأخوة العالمية على المبدأ القائل بإمكانية امتلاك الدنيا من دون أن تملكك الدنيا.

بيد أن فارس الإيمان هو من لا يوجه سلاحه في وجه أمته إشارة لنبل الأخلاق و متانة الحس القومي. و عليه لا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنة فارس الفتوة بالمرتزقة السفلة الذين يضعون أنفسهم في خدمة القوى الأجنبية أو الخفية بل هو في خدمة شعبه جاعلا من نفسه جنديا مملوكا لوطنه. أمانة لميثاق الشرف الذي عليه مدار أمر الفتوة ينظر المرابطون باتجاه الحدود الخارجية للإسلام و ليس نحو داخل هذه الحدود. فهم يتورعون عن الإخلال بالأمن أو التعرض للمسلمين حاصرين مهمتهم في إطار حماية العقيدة و الوطن من المخاطر الوافدة من الخارج مع

استبعاد الخصم بروح الفتوة القائم على احترام الكلمة حتى مع الأعداء. فبعيدا عن أية قراءة تأبينية من شأنها تحويل هؤلاء الفرسان النبلاء إلى مجرد دراويش متصعلكين، يتعين حسبان تضحية شهداء الإيمان بمثابة قربان شرعي للأمة التي كانوا دوما مدمجين في رحمها كما يوحي بذلك استطلاع السيرة الرحمانية و جهادها التاريخي في سبيل حرية الجزائر و عزتها و كرامتها.

بالعربي الفصيح ترجع كلمة فتى إلى مصدر يحمل معاني الشباب و القوة و الجمال: الفتى إذن هو الغلام الذي يتمتع بخصال خلقية بضم الخاء و خلقية بفتح الخاء عالية ما يفسر الاهتمام البالغ بالتمارين الرياضية كالمقاومة و الرماية و ركوب الخيل. في القرآن الكريم كلمة فتى تعني الرجل المكتمل الخصال الذي لا حد لكرمه إلى درجة التضحية بحياته. باعتباره حامي العدل و راعي الحق يتوجب على فارس الفتوة نجدة القريب، بث الانشراح و إثارة الأمل.

بعد الاعتراف بهم من قبل الخليفة الناصر لدين الله (577–620) الذي كان هو ذاته ينتمي إلى مدرسة الفتوة المتواجدة في الجزائر منذ أكثر من ألف عام صار هؤلاء الفرسان في خدمة الدولة في إطار الرباطات التي تنحدر منها عبارة «مرابط». امتدت هذه الرباطات من ميناء القالة شرقا إلى ميناء الغزوات غربا. أشهر الرباطات التاريخية الواقعة على الحدود البحرية و التي كان يشرف عليها المرشد أو الشيخ و التي تولدت عنها فيما بعد مؤسسة الزاوية من مصدر زوي، إنزواء، إشارة إلى مكان العزلة و الخلوة رباطات عنابة، بجاية، شرشال و رباط الفتح بوهران.

من الفرسان من كان يخضع لتكوين روحي خصوصي و منهم من كان يرتدي زيا مميزا يعرف بلباس الفتوة و الذي كان يندرج في إطار طقوس التأهيل لتقلد رتبة المريد و التحاقه بالطريقة التي ترفع إلى النبي ﷺ و التي تحتمي بلوائها جميع الفتوات المنخرطة في سلك التصوف. يروى أنه بالرغم من صرامة انضباطهم الداخلي إلا أنهم يكرمون عابري السبيل و يمدونهم بالطعام و المأوى. يعد ميثاق المروءة المتضمن في كتاب الفتوة الذي ألفه أبو عبد الرحمن بن الحسين السلمي الذي عاش في القرن الرابع الهجري (عاشر ميلادي) أقدم مرجع لاستطلاع أصول الفروسية الروحية في الإسلام.

على غرار الصحبة الأوربية المعروفة في العصور الوسطى، فإن الفتوة الروحية (خوان بالأمازيغية، آخيليك بالتركية و جوانماردي بالفارسية) التي قد يكون فرسان الهيكل دخلوا في اتصال معها إبان الحروب الصليبية هي أصل المؤسسات المهنية و الجمعيات الحرفية في الإسلام. كان يوجد في السابق فتوات للحرفيين و البنائين، الخ. إلى يومنا هذا يبدو أن هذا النوع من النقابات ما زال قائما في بعض الحواضر الإسلامية تحت رعاية الأنبياء الذين يوائم مسارهم طبيعة الأشغال الممارسة: إدريس/علم الفلك، داوود/ صناعة الحديد، سليمان/العلوم الخفية، الخ.

تبدو الفتوة منذ صدر الإسلام في صميم السلوك الروحي للمريد الذي عقب تقلده السيف ذو الحدين و الرمح و الدرع يتجه بمفرده قصد غزو نفسه السفلى و القيام برحلة لا رجوع فيها نحو مهندس الكون. كذا، يصير الصوفي عارفا بأسرار فن الفروسية عاملا في السر على إحقاق الحقوق و استتباب السلام في سبيل إقبال عالم جديد. يتعلق الأمر بالنسبة لمن يصبو إلى ممارسة هذا الفن الملكي بملزومية تجاوز طفولته و بلوغ سن الرشد. بعبارة أدق هو التخلي عن حالة الرق و الموالاة التي عليها مدار ضميرنا الاعتيادي و الانقلاب إلى كائن معتق آخذ بناصية مصيره. و أما الاحتفاظ بطزاجة العمر فيعني مغادرة حالة الغيبوبة و الانتقال إلى حالة التمييز الحدسي بفعل الانفتاح على حقيقة أعلى من تلك التي يقترحها علينا واقعنا اليومي.

الفتوة باطن النبوة فعلى عاتقها تقوم وظيفة إتمام مكارم الأخلاق كما ورد ذلك في الحديث الشريف المعروف. تعد هذه القوة الروحية بمثابة سلم حيوي لتدرج طبقات التطور الداخلي للإنسان و لاكتماله الروحاني الذي يمكننا استشفاف صورته عبر المثل القرآني للفتية الذين قاموا بالانحياش إلى الكهف و الاستغراق في نعاس غائر دام ثلاث مائة سنين و ازدادوا تسعا اتقاء لاضطهاد الإمبراطور الروماني دسيوس أو دقيوس و كبيان للمقاومة السلبية في وجه تعسف الرجال و المؤسسات.

هي ذي نماذج الفتوة التي تتيحها لنا وجوها روحانية فتية كمثال إبراهيم الذي يقوم بتحطيم الصنم كرمز لنفسه و يلقي بجسده في نار النمرود كدلالة على عزمه في الأمر قبل لقائه العجيب مع ملك السلام ، أو كمثال يوسف الصديق الذي فضل السجن على خيانة سيده، أو كمثال النبي محمد ﷺ الذي قام بواجب الهجرة إلى الله اتقاء لاضطهاد شعبه، أو كمثال فتاه علي كرم الله وجهه الذي قام بتعريض نفسه لخطر الموت

باضطجاعه في سرير النبوة وقاية لرسول الله ﷺ ضد ضربة قاتلة كانت على وشك إصابته ، أو كمثال الفتى يوشع الذي أخلص في صحبة سيده موسى الذي كان هو نفسه في طور البحث عن شيخه الخضر من قد اخضرت خرقته للمسها عين الحياة، الساكن عند مرج البحرين و الذي ينظر إليه تارة على أنه هرمس الهرامسة، أخنوخ أو إدريس و تارة على أنه إلياس.

لأجل كل هذه الاعتبارات الأنثربولوجية و التاريخية المتولدة عن ظاهرة الفتوة في الإسلام و في باقي التقاليد الدينية الأخرى نعتزم تخصيص المقال المحضري. مقاربتنا تصبو لأن تكون جامعة لكل الدعوات المؤدية لنظرة حديثة و مقارنة لمحاولة معرفة مصدر، طبيعة، تطور و نهايات الطرق الصوفية و سائر المناهج الروحية و الباطنية. إشكاليتنا تهدف إلى تعبئة فرق بحث متعددة الاختصاصات وطنية، جهوية ودولية حول هذه المسألة.

الموضوع الذي يسترعي انتباهنا يتناول مدى مساهمة الفتوة الروحية في اندلاع الحركة الوطنية التحررية بخاصة في منطقة القبائل التي تحولت منذ 1830 إلى صحن لعدة ثورات كرد فعل تلقائي غداة غزو الجزائر من طرف القوات الفرنسية دون إهمال الروافد الروحية الأخرى التي هي من صميم التجربة الصوفية في الإسلام و التي تميز خصوصية التدين في هذه الأرض المؤمنة و المعروفة تاريخيا بأنها مهد الزوايا و المدارس القرآنية و حصن المرابطين كما رفعت عاليا سنجق الولاية الموشى بالهلال و النجمة.

في حين نصبو للتعاطي مع تقاليد الفتوة على أساس كونها ظاهرة روحية عالمية اكتمالية الطابع و ليس باعتبارها خصوصية إسلامية أو تعبير ثقافي جزائري بحت ما يقتضي منا اعتماد مبدأ المقارنة.

إن الإحاطة المعرفية بالفتوات الروحية القائمة على نظرة شمولية للكون تكتسي اليوم أهمية ثقافية حيوية في الوقت الذي تواجه فيه مجتمعاتنا سلبيات العولمة المتوحشة على غرار ما يعرف بصدام الحضارات. أصبو إذن للمساهمة في تمكين العلم و المجتمع من إمكانية استيعاب ماضينا و المساهمة في اكتساح مستقبلنا و كذا التصالح مع حاضرنا في سياق قائم على الحوار، على التسامح و على الانفتاح.